



السلسلة: الظروف الماديّة والفكريّة للعلوم في المدينة الإسلامية

الفصل 2 | نقل التراث العلميّ اليونانيّ إلى العربيّة وترجمته

المقال 10 | نصف كتاب أنقذه مترجمٌ من الضياع



حين سافر حنين بن إسحاق آلاف الكيلومترات بحثاً عن نسخة واحدة

تخيّل عالماً يُفني سنواتٍ من عمره، يجوب بلداناً ومدناً شتّى، لا بحثاً عن كنزٍ أو ثروة، بل بحثاً عن نسخة واحدة من كتاب. هذا بعينه ما فعله حنين بن إسحاق، أشهر مترجمٍ في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، وقصّته يرويهما هو بنفسه، بكلماته، في نصٍّ وصل إلينا كاملاً.

الكتاب المنشود: «في البرهان» لجالينوس

الكتاب الذي بحث عنه حنين مؤلّفٌ منطقيّ مهمٌ للطبيب اليونانيّ جالينوس، يقع في خمسة عشر جزءاً، ويتناول مسألةً دقيقة: الطريقة التي تُثبت بها الحقائق العلميّة إثباتاً قاطعاً، وهي الغاية عينها التي سعى أرسطو إلى بلوغها في كتابه الرابع من «الأورغانون». غير أنّ هذا الكتاب بالذات كان من الندرة بمكانٍ حتّى اعترف حنين نفسه بأنّه لم يظفر أحدٌ من معاصريه بنسخةٍ كاملة منه.

رحلةٌ بلا كلل

فماذا صنع حنين؟ لم يقنع بالبحث في بغداد، بل يروي بنفسه: «سافرتُ في طلب هذا الكتاب في بلاد الرافدين، وسوريّة، وفلسطين، ومصر، حتّى بلغت الإسكندريّة، فلم أجد شيئاً، إلّا في دمشق حيث وجدتُ نصفه تقريباً. غير أنّ تلك الكتب كانت غير تامةٍ ومشوّشة». رجلٌ واحدٌ يقطع مسافاتٍ شاسعة عبر أربع مناطق جغرافيّة مختلفة، حتّى الإسكندريّة نفسها، أعظم مركزٍ علميٍّ في العصور القديمة، فلا يظفر فيها بشيء؛ وحين يؤوب إلى دمشق، لا يجد الكتاب كاملاً، بل نصفه فحسب، وحتّى هذا النصف كان، بكلماته، «غير تامٍّ ومشوّش».





لم يكن وحيداً في هذا السباق

والألف أن حنين لم يكن وحده من يبحث عن هذا الكتاب بعينه. فهو يذكر أن زميلاً له، الطبيب جبريل بن بختيشوع، كرّس جهداً عظيماً في البحث عنه أيضاً، وظفر بأجزاءٍ تخالف ما ظفر به حنين. وكأنّ هاهنا سباقاً علمياً حقيقياً خاضه عالمان مختلفان، يسعى كلّ منهما إلى القطع المفقودة من اللغز نفسه.

ما الذي تكشفه هذه القصة؟

هذه الحادثة، على طرافتها القصصيّة، تحمل في طيّها رسالةً علميّة دقيقة، تهدم صورةً شائعة عن حركة الترجمة العربيّة تصوّر المترجم جالساً في مكتبته، تتوافد عليه كتب اليونان تبعاً فينقلها بلا عناءٍ يُذكر. فأوّلًا، لم تكن الترجمة تجري عبثاً، بل كانت ثمّة نصوصٌ معيّنة سلفاً يُراد نقلها بذاتها، ثم يُبحث عن مخطوطاتها بحثاً مقصوداً منظماً. وثانيًا، لم تكن مراكز البحث عن المخطوطات مقصورةً على القسطنطينيّة البيزنطيّة وحدها، كما قد توحى بعض الروايات الشهيرة عن بعثات المأمون، بل شملت أقاليم الإمبراطوريّة القديمة قاطبةً، من بلاد الرافدين إلى مصر والإسكندريّة. وثالثًا، وهي الأهم: حين يسافر عالمٌ بنفسه سنواتٍ طلباً لنصٍّ بعينه يحتاجه في بحثه، فذلك دليلٌ على أنّ حاجة البحث هي التي تُحرّك حركة الترجمة، لا أنّ الترجمة تكتمل أوّلًا ثم يبدأ البحث من بعدها.

أمانة علميّة نادرة

ومما يزيد هذه القصة قدرًا صراحةً حنين في الاعتراف بالنقص: فهو لم يدّع العثور على الكتاب كاملاً، بل أقرّ بوضوح أنّه وجد نصفه فقط، وأنّ هذا النصف كان مشوّشاً غير تامّ. فحين نقرأ اليوم «ترجمة عربيّة لكتاب جالينوس»، قلّما نتخيّل رحلة البحث المضنية التي سبقتها، والجهد الإنساني الذي بذله رجلٌ واحد، قطع آلاف الكيلومترات كيما ينقذ نصف كتابٍ من الضياع.





المصدر: مقتبسٌ ومُعَدُّ عن فصل «نقل التراث العلميّ اليونانيّ إلى العربيّة وترجمته»، بقلم رشدي راشد، ضمن المجلد الثالث من موسوعة «تاريخ العلم» (الموسوعة الإيطاليّة لتاريخ العلوم الإسلاميّة)، الصادرة عن معهد الموسوعة الإيطاليّة (تريكاني)، سنة 2002، بإشراف رشدي راشد، ص 1-36. وهو جزء من الموسوعة التي تُعدّ دار الرّبان للنشر حاليّاً لترجمتها ونشرها بالعربيّة كاملة.



<https://arsco.org/>

